الخطاب القرآني وضرورات العقل
دراسة في السور المكيّة

د.مؤيد فيصل الساعدي
كلية القانون ـ جامعة كربلاء

المقدمة:

الحمد لله الذي لا يهتك حجابه ،ولا يغلق بابه.ولا يرد سائله،ولا يخيّب آمله.والصلاة والسلام على الخاتم لما سبق،والفاتح لما استقبل،الرسول الأعظم (محمد) صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد...

فان كل أطروحة فكرية تعتمد في نجاحها وفي بلوغها أهدافها الموضوعة لها، على الكيفية والطريقة التي يتم من خلالها تقديم ما تشتمل عليه هذه الأطروحة من مسائل فكرية وقضايا جوهرية،تجسد هوية هذه الأطروحة،وغاياتها التغييرية.

كما ان هذه الكيفية والأسلوب في طرح مكنونات كل أطروحة،ستحدد ـ وبشكل جليّ ـ شكل تلقي الآخر لهذه الأطروحة،ومدى تقبله وإقباله عليها او رفضها وإنكار منطلقاتها الفكرية.

ولعل الأطروحة الشاملة التي جاء بها الخطاب القرآني ؛من اخطر واصعب الاطروحات التي شهدتها البشرية ،وكانت مهمتها التغييرية مهمة شاقة ومعقدة، ذلك أن (الآخر) الذي كان الخطاب القرآني موجهاً إليه،عبارة عن مجتمع يعيش حالة من الانحراف والضلالة شملت جميع أبعاد ومكونات هذا المجتمع الفكرية والاجتماعية،سواءً في علاقة الفرد بإلهه ،والتي كانت قائمة على الشرك، أم في علاقته بنفسه ،وكان أساسها الفجور والفساد والانحرافات الخلقية وتأليه الشهوات ومشاعتها، وكذلك في علاقته بمجتمعه ،وكانت قائمة على الظلم والاستعباد والامتهان.

ومجتمع يمتلك مثل هذه المرتكزات الانحرافية،ويقوم على هذه المنظومة والمعتقدات والعقائد التي كان يقدسها ويجلها،لا يمكن أن نتوقع منه الإذعان والقبول لأية أطروحة جديدة تنسف أساس ثقافته وحضارته بكل أبعادها ،لتقيم مكانها حضارة أخرى ،وتنشئ مجتمعاً آخر يقف على النقيض مما كان يقوم عليه مجتمعه.

ولكن ،ما هو حاصل فعلاً، أن هذا المجتمع، وفي فترة وجيزة، قد قبل وأذعن لهذه الأطروحة،بل وتبناها عقيدةً يبشّر بها الأمم الأخرى،ويدافع عنها باللسان والسيف.

وكان الفرد من هذا المجتمع الجاهليّ،يهتز ويرتعش من أعماقه بمجرد سماعه لبعض فقرات هذا الخطاب الجديد،ولا يملك سوى الإذعان له،والإيمان به.نستثني من ذلك الذين وقفوا في وجه المد الإسلامي دفاعاً عن مصالح شخصيةٍ، لا تقرّها العقيدة الجديدة،ومع ذلك،فإن هؤلاء المعارضين لم يكن بمقدورهم أن يمنعوا هذا

ISSN-1812-7576

Urgent

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السحر وهذا الإقناع الذي يمتلكه الخطاب الجديد من الولوج الى أعماقهم،رغم كتمهم لهذا التأثير،وعدم الإقرار به.

وكان هذا التأثير واضحاً في الصفات التي أطلقوها على الرسول (ص) ،فوصفوه بأنه ساحر،وبانه شاعر، وكاهن،وهي كلها صفات تنطوي على جانب التأثير الشديد في المقابل.كما أن كثيراً من الروايات تروي لنا كيف كان هؤلاء المعارضون يتسللون خفيةً من أجل الإستماع الى القرآن،والتلذذ به، وبمحتواه.

كل هذه الامور تشير الى أن الخطاب القرآني - في عهده المكيّ خاصةً - قد انتهج في طرح محتوياته وقضاياه منهجاً يلامـ ـ مواقع القبول في فكر ونفس الآخر مباشرةً،ولا يترك له فسحةً من الإنكار والجحود،إلا إذا شاء تكبراً ومعانداً للحقيقة ومنطق العقل.

وفي هذا البحـ ـ، سنقوم بقراءة سريعة للمنهجية التي اتبعتها السور المكية في تسلسل وطرح محتويات الخطاب القرآني،ومعرفة القضايا المهمة التي اهتم القرآن بطرحها أولاً،والتي أراد لها أن تكون قاعدة للمنظومة الفكرية القرآنية.

والهدف من ذلك؛ معرفة المنهجية الفضلى والأسلوب الأسلم في مخاطبة الآخر ومناضرته،بأفضل طريقة يمكن السير على خطاها في النقاش والمناضرة ومحاججة الآخر الحامل للفكر المضاد،مسترشدين باسلوب القرآن الكريم نفسه، وبمنهجيته الرائدة في هذا المضمار.

والله من وراء القصد.

مدخل نظري:

الفطرة وضروريات العقل:

يولد الإنسان ويولد معه خزين من المسلمات والمصدَّقات الداخلية التي تكون على نحو ـ ما ـ شكلا فطريا بسيطا من أشكال التجريد والتأسيس،يقننها الإنسان في قواعد ومنطلقات توجه حركيته الذهنية ـ سواء بشكل واع أم بشكل غير واعٍ ـ في البحث عن الحقائق واقرارها. وما لذلك من اثر في ما يصدر عن الانسان من أفعال وتحركات على مستوى الفرد نفسه او على مستوى علاقة الفرد بمحيطه وبالكون من حوله،وصولا الى علاقته بالهه.

وترتبط هذه المسلمات ارتباطا وثيقا بهبة (العقل) التي وهبها الله للانسان وامكانية هذا الجوهر الانساني من ادراك الحقائق الكبرى والاحاطة بالامور والمسائل الغيبية الخارجة عن نطاق الحس .وقد تعددت المسميات التي اطلقت على هذه المسلمات،فسميت(البديهيات) و(الضروريات) و(المعارف التصديقية)،وهي جميعها مسميات تشير الى أن هذه المسلمات لا تتطلب إعمالا للفكر وجراً للبراهين من اجل إثباتها،وانما لا يحتاج الانسان سوى أن يعرضها على عقله ليصدقها مباشرة ويؤمن بها.

ISSN-1812-7576

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الأمر نجده مشتركا بين جميع أبناء الجنس البشري، على اختلاف ثقافاتهم وحضاراتهم وعلى اختلاف اماكن سكناهم وتواجدهم أتفرق في ذلك بيت الساكن في قمة من قمم ناطحات السحاب، وبين النائم في اعمق غابات المناطق الاستوائية. وكذلك نجد هذه المسلمات مشتركة بين البشر على امتداد تاريخ تواجدهم وازمنتهم.

فالضرورة أو البديهية تعني ((أن النفس تضطر الى الإذعان بقضية معينة من دون أن تطالب بدليل أو تبرهن على صحتها،بل تجد من طبيعتها ضرورة الإيمان بها إيماناً غنياً عن كل بينة وإثبات،كإيمانها ومعرفتها بالقضايا الآتية:(النفي والإثبات لا يصدقان معاً في شيء واحد)،(الحادث لا يوجد من دون سبب) (الصفات المتضادة لا تنسجم في موضوع واحد)(الكل أكبر من الجزء) (الواحد نصف الاثنين). [١]

ولو وجهنا وجوهنا شطر القرآن الكريم،فاننا سنصادف مصطلحين يشيران الى قواعد أسس باطنية محركة للإنسان ومؤثرة فيه وفاعلة في توجيه طبيعة العلاقة بين الإنسان وبين خالقه من جهة ،وبينه وبين مجتمعه من جهة اخرى، هذان المصطلحان هما (فطرة الله)و(صبغة الله) فيقول جل شأنه((فأقم وجهك للدين حنيفا،فطرة الله التي فطر الناس عليها))[٢] ويقول جل ذكره:(صبغة الله ومن احسن من الله صبغة).[٣] ولو رجعنا الى معاجم اللغة ،لوجدنا ان كلمة (الفطرة) تعني (الخلقة)[٤].

أي الكيفية التي خلق الله الإنسان عليها،حيث ((ان المقصود من (فطرة الله) التي فطر الناس عليها هو الحال والكيفية التي خلق الناس عليها وهم متصفون بها،والتي تعد من لوازم وجودهم)) . [٥] وكذلك (الصبغة) التي تمثل ((الحالة التي أرادها الله للإنسان)).[٦]

يقول الإمام الخميني (قدس) حول مفهوم الفطرة:((لا بد ان نعرف أن ما هو من احكام الفطرة لا يمكن أن يختلف فيه اثنان،من ناحية انها من لوازم الوجود في اصل الطبيعة والخلقة،فالجميع، من الجاهل والمتوحش والمتحضر والمدني والبدوي،مجمعون على ذلك،... ان اختلاف البلاد والاهواء والمانوسات والاراء والعادات التي توجب وتسبب الاختلاف في كل شيء حتى في الاحكام العقلية،ليس لها مثل هذا التأثير أبداً في الامور الفطرية.كما أن اختلاف الادراك والافهام قوة وضعفا لا يؤثر فيها،واذا لم يكن الشيء بتلك الكيفية فليس من احكام الفطرة ويجب اخراجه من فصيلة الامور الفطرية،ولذلك تقول الآية:(فطر الناس عليها) أي أنها لا تختص بفئة خاصة ولا طائفة من الناس،ويقول تعالى ايضاً:٠لا تبديل لخلق الله) أي لا يغيره شيء،كما هو شأن الامور الاخرى التي تختلف بتأثير العادات وغيرها)) . [٧]

فكون الفطرة تمثل الكيفية التي خلق الانسان عليها ؛يشمل جميع ابعاد الانسان الفكرية والنفسية والاخلاقية والاجتماعية، وكل السمات والصفات التي تخلق انسانية الانسان وتحدد هويته،والتي بوجودها وحيويتها يظل الانسان محتفظا بهويته الانسانية التي خلقه الله عليها، وفي ذلك اشارة الى ان كمال الانسان وسعادته الحقة في تحقيق انسانيته كما فطرها الله،وان التأثيرات التي تمارسها البيئة ويمارسها المجتمع على الانسان لا تلغي مسلماته الفطرية؛ وانما تقوم بحرف توجهاته الفطرية لتضع قدمه على طريق الشقاء والضلالة

ISSN-1812-7576

Urgent

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن معدن السعادة الانسانية والمتحققة في الاتصاف بالصفات الفطرية المغروسة في اعماق الانسان والانصياع لهذه الفطرة وتوجيهاتها الفكرية والاجتماعية.

ومن هنا ربط الخطاب القرآني بين الفطرة وبين (الدين) في قوله تعالى:((فأقم وجهك للدين حنيفاً،فطرة الله التي فطر الناس عليها))[٨] ذلك أن الدين الذي يأمر الله باتباعه،إنما جاء ليخلق سعادة الانسان وينظم حياته وعلاقاته المتنوعة مع نفسه ومع الكون،فمن غير المعقول أن يأمر الله بما يتنافى مع الغاية من خلق الانسان،كما ان من المحال أن يأمر جل شأنه بما لا يقع ضمن دائرة وأمكانية الفطرة الإنسانية، أو ما يتعارض معها.

والى ذلك أشار صاحب الميزان (قدس) في تفسيره لآية الفطرة ،يقول:((الفطرة بناءً،نوع من الفطر، بمعنى الإيجاد والإبداع، و(فطرة الله) منصوب على الأغراء ،أي الزم الفطرة،ففيه إشارة الي آن هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له هو الذي تهتف به الخلقة وتهدي إليه الفطرة الإلهية التي لا تبديل لها وذلك انه ليس الدين إلا سنة الحياة والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته فلا غاية للإنسان يتبعها إلا السعادة وقد هدى كل نوع من أنواع الخليقة إلى سعادته التي هي بغية حياته بفطرته ونوع خلقته،وجهّز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز،)). [٩] ويمكننا أن نستدل على مخاطبة الدين للفطرة الإنسانية من خلال بعث الأنبياء (ع) للأمم كافة وكون هؤلاء الأنبياء جميعهم (ع) يمثلون شريعة واحدة تشترك في القواعد والأسس التي تقوم عليها، وتقوم على أصول واحدة ،وان اختلفت في بعض المسائل المتعلقة بفروع الدين وذلك تبعاً لبعض الخصوصيات المتعلقة بطبيعة حياة كل أمة وبيئتها النفسية والاجتماعية.

وفي القران إشارات عدة إلى وحدة المنطلقات والأهداف التي جاء بها الأنبياء(ع).كقوله تعالى ((إن الدين عند الله الإسلام))[١٠] وكقوله جل شأنه في معرض حديثه عن الأنبياء:(((وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين)) . [١١]

اذن فالفطرة هي الكيفية الخاصة للانسان ؛أي مجموعة الحقائق الفكرية والاخلاقية المزروعة في داخل الإنسان،والمتحدة بوجوده والخالقة لإنسانيته.والتي ان تركت على سجيتها فانها تظل تمثل حافزا ومحركا مهما يوجه الانسان في اختياراته وقراراته،لان ((جميع المبادئ الحقة هي من الامور التي فطر الله تعالى الإنسان عليها))[١٢] والإنسان لا يملك مخالفة ما يمثل حقيقته ووجوده وإنسانيته الا اذا تعرض الى مؤثر خارجي لا يطمس هذه الفطرة وانما يوجهها توجيها خاطئا يضعها في غير مسارها ،وهو ما يشير اليه الحديث الشريف:((ما كل مولود يولد الا على الفطرة ، فابواه اللذان يهودانه او ينصرانه او يمجسانه)).[١٣]

ومن هنا يمكن القول ان في اعماق الانسان منظومه من المسلمات والبديهيات التي تكون الفطرة الخالقة لحقيقه الانسان والمشكلة للقواعد العقليه التي لايملك الانسان ازاءها سوى الاذعان والتسليم بصحتها والانقياد لها،فاحكام الفطرة ((أكثر بداهة من كل امر بديهي ،اذ لا يوجد في جميع الاحكام العقلية حكم مثلها في البداهة والوضوح،حيث لم يختلف فيه الناس ولن يختلفوا وعلى هذا الاساس تكون الفطرة من اوضح الضروريات وابده البديهيات)) . [١٤]

ISSN-1812-7576

Urgent

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أبعاد الخطاب القرآني:

ينشئ القرآن حوارية داخلية نابعة من اعماق فطرة الانسان ،تجعله واقفاً وجها لوجه أمام نفسه بهدف جعل الانسان - بحد ذاته - حجة على نفسه، وعدم منحه فرصة الانكار والجحود من خلال ملامسة الاسئلة الخالدة في اعماق الانسان،والتي تدور داخل كل فرد من افراد الجنس البشري،والمنبعثة من اعماق فطرته الباطنة التي تقدم الحديث عنها

ويبدأ القرآن بمخاطبة الإنسان ووضع الأجوبة التي تقوم على أسس بديهية متناغمة مع فطرته السليمة،مما يترك الإنسان عاجزاً أمام هذه الحقائق التي يجد ما يؤيدها في أعماق أعماقه،والتي تؤمّن له ما يبحث عنه على مستوى ذاته وعلى مستوى محيطه.

والمتتبع للآلية التي اتبعها القرآن في مخاطبة الإنسان وعرض حقائق الشريعة عليه، يجد أن القرآن قد خاطب العقل بمسلماته وبديهياته التي يصدق بها وبصحتها ،من خلال إثارة الأسئلة والهموم الكبرى التي تقلق الإنسان في كل زمان ومكان ،وبيان بطلان الوضع الراهن الذي يعيشه الإنسان بشكل عام،ومجتمع الجزيرة العربية بشكل خاص،ثم بعد ذلك طرح المشروع الجديد الذي يدعو إليه القرآن،وضرب الأمثلة السلبية والايجابية لهذا المشروع،وتقديم الامثلة العملية المجسدة له،كل ذلك بما يتلاءم مع البديهيات والمسلمات الكبرى التي يستبطنها العقل البشري،مع الاهتمام بالجانب الذوقي والجمالي في عرض كل ذلك،مما يمنح المقابل (الانسان) نوعاً من الاهتمام والتقدير للحس الفني الذي يتمتع به، وفي ذلك ما لا يخفى من التعاطف والمثالية في طرح القضايا ومناضرة الخصوم.

وسنحاول استعراض كل فقرة من فقرات المشروع القرآني على حدة،من اجل استكشاف الابعاد والاسس التي اعتمدها الخطاب القرآن في منهجه الإصلاحي. في عهده المكي خاصة.

أولاً- الأسئلة الخالدة والهموم الكبرى:

تمثل فترة العهد المكي فترة صراع فكري بين مشروع إصلاحيّ سماويّ، وبين قاعدة معرفية منحرفة استحكمت فيها الكثير من الأفكار المضللة والشيطانية،وساهمت معركة الأهواء والشهوات في ترسيخ هذه الانحرافات الفكرية والعقائدية.

الا أن الملاحظ على الخطاب القرآني أنه لم يواجه هذه الانحرافات عن طريق النفي والالغاء المباشر لها ،والطرح المباشر لابعاد المشروع الجديد،إذ أن هذا الطرح المباشر قد يصادف ردة فعلٍ قوية مؤداها الايمان المضلل بهذه الاعتقادات المنحرفة، وبصحتها،بل نجد أن القرآن قد بدأ بطرح المعتقدات التي تتلاءم والقاعدة البديهية للانسان،والتي هي معتقدات تمثل ضرورات عقلية لا يمكن انكار صحتها مما ينشئ القاعدة الفكرية والنفسية الاولى التي تمهد للايمان بالمشروع الجديد،وفي ذلك اعظام وتقدير للقدرة العقلية التي يمتلكها الآخر، واحترام هذه القدرة الفذة.

ISSN-1812-7576

Urgent

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمنذ الآية الاولى نجد الخطاب القرآني قد اثار قضية بديهية تدفع العقل الى حلقة محكمة لا يمكن الخروج منها ،فالآية الاولى تقول:((إقرأ باسم ربك الذي خلق))[١٥] فالعرب لم يكونوا جاحدين ومنكرين لوجود الله، بل كانوا يؤمنون به جل ذكره كإله معبود،الا انهم كانوا يشركون معه مجمو عة من الآلهة التي يعتقدون أن الله خوّل اليها التصرف في الكثير من القوانين الكونية المنظمة لحياة الانسان،وقد كانوا يرمزون لهذه الآلهة بالشمس والقمر والزهرة،وكانوا يخلقون هذه الآلهة بايديهم من الحجارة والخشب وغير ذلك،وكان لكل اله وضيفة معينة،فاله للمطر واله للحرب واله للتجارة ... الخ.

فجاءت هذه الآية لتثير بديهة لا ينكرها العقل السليم، وهي أن الرب الذي يدير شؤون خلقه لا يمكن أن يكون مخلوقا يصنعه خلقه!

فالمعبود الحقيقي هو الرب الذي يمتلك القدرة على خلق الانسان وما يخلقه الانسان.

فالذي يستطيع الخلق،يجب أن يكون اعلى من كل ما هو مخلوق: ((سبح إسم ربك الأعلى.الذي خلق فسوى .والذي اخرج المرعى)) . [١٦] ولعل السر في استعمال كلمة(رب) بدل كلمة(اله) يرجع الى ارتباط الاسم (الرب) بمعاني التدبير والرزق والنمو التي ينسبونها الى آلهتهم التي يشركونها مع الله.يقول جل وعلا: ((انكم لتكفرون بالذي خلق))[١٧]

وبذلك أقام الخطاب القرآني دعوته الى التوحيد على هذه البديهة والضرورة العقلية البسيطة.

ويمضي الخطاب القرآني في اثارة كوامن الفطرة الإنسانية عن طريق دعوته الى التأمل في الكون ونظامه وقوانينه الدقيقة وما يخلقه هذا التأمل من أسئلة تثيرها المسلمات العقلية والفطرية : ((والشمس وضحاها،والقمر إذا تلاها،والنهار اذا جلاها،والليل اذا يغشاها))(١٨)

((الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا.وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا))(١٩). ((لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس))(٢٠).((أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج.تبصرة وذكرى لكل عبد منيب.ونزلنا من السماء ماءً مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد.والنخل باسقات لها طلع نضيد))(٢١).

إن هذه الدعوة إلى التأمل سوف تلقي في ذهن الإنسان حقيقة ضرورية مفادها ان هذا النظام الدقيق دليل على وجود صانع قدير حكيم:((إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين.وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون.واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون))(٢٢).((الم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إ، في ذلك لذكرى لاولي الالباب))(٢٣).

فالتأمل في الكون ونظامه يذكر (أولي الألباب) ،وهذا التعبير بـ(الذكرى) يشير إلى ايقاض الفطرة ومسلماتها التي لا يؤمن بها سوى (أولي الألباب)أي أن الفطرة والتذكير مرتبطان باللب، أي العقل.

Urgent

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن كل هذه الآيات السابقة تخاطب العقل وتطرح امامه بديهيات وضروريات لا يمكن جحودها وردها،لأنها تمثل أسئلة خالدة تعيش في داخل الإنسان نفسه، وتحرك فكره بحثاً عن جواب لها،كما انها تشكل ((نزعة أصيلة في الإنسان الى التعلق بخالقه، ووجدان راسخ يدرك بفطرته علاقة الإنسان بربه وكونه))(٢٤).

ثانياً- المشروع الجديد

يقدم الخطاب القرآني في طرحه للمشروع الجديد مجموعة من القيم والاطروحات التي تمثل قضايا بديهية يقرها العقل كضرورات مسلّمة،تتلاءم وطبيعة الانسان المادية والروحية والفكرية،ونجد أن كل فقرة من فقرات هذا النظام الشامل تمثل الصورة المثالية للقيم العليا التي يبحث عنها الإنسان.

ومن اللافت للنظر هنا، أن الخطاب القرآني في عهده المكي لم يضع التفاصيل الدقيقة للأحكام والقوانين المنظّمة للحياة الجديدة،لأن ذلك قد يواجه رفضاً ومعارضة ،خصوصاً في الاحكام التي تقوم على اساس من مجاهدة النفس وتقديم الحقوق الاجتماعية والشرعية،وغير ذلك مما يتقاطع مع المصالح الشخصية للافراد،بل إننا نجد أن الخطاب المكي قد استعمل اسلوب الإقناع من خلال طرح القواعد والأسس الكبرى المنظّمة للمشروع الاصلاحي الجديد، ولو تفحصنا هذه القواعد لوجدناها مجموعة من الاطروحات البديهية والضروات العقلية التي توافق فطرة الإنسان.

فقبح الظلم ضرورة عقلية ومسلمة فطرية ولذلك اشار الخطاب القرآني الى ضرورة إقرار العدل كاساس للأطروحة الإجتماعية الجديدة: ((أن لا تزر وازرة وزر أخرى.وأن ليس للإنسان إلا ما سعى))(٢٥) ((وقد خاب من حمل ظلما))(٢٦).

وقضية العدل تقوم على ضرورة عقلية وفطرية اخرى هي مسؤولية الاعمال،وان كل انسان مسؤول عن عمله،وان هذه الاعمال لا يمكن ان تمر دون حساب ،والا فاين العدالة في الطاغية الذي يفتك بالآلاف من بني جنسه، ويعيش حياة مترفة مرفهة، ثم يموت وتموت معه حقوق مظلوميه؟فجاءت الآيات المكية لتشير الى مسؤولية الانسان عن اعماله: ((وكل شيء فعلوه في الزبر))(٢٧).((انما تجزون ما كنتم تعملون))(٢٨) ((اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد))(٢٩).((كل نفس بما كسبت رهينة))(٣٠).

ان ضرورية العدل ومسؤولية الاعمال ترتبط بوجه آخر لها يمتد الى ما بعد الموت،مجسدة بذلك أصلاً من أصول الدين؛وهو(المعاد)،فالضرورة الفطرية التي تقول بوجوب معاقبة المسيء لا تشمل كل الموجودين في هذه الحياة،وبالتالي فلا بد من وجود حساب يعقب الموت يشتمل على العقوبة والمثوبة: ((القيا في جهنم كل جبار عنيد.مناع للخير معتدٍ مريب.))(٣١) .((فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره.ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره))(٣٢).

فضلا عن هذا الجانب السلبي من الاخلاق،فقد شمل الخطاب المكي الجانب الإيجابي منها،فدعا الى كل ما يتلاءم وبديهيات العقل البشري ،وفطرته من الاخلاق الحسنة.وهذا المجتمع الذي يسوده الامن والود والتراحم بين ابنائه ويحكمه العدل ولا مكان فيه للظلم والظالمين،إن هو الا حلم فطريّ يداعب مخيلة البشرية على مر

ISSN-1812-7576

Urgent

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العصور.((فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة،فك رقبة. او إطعام في يوم ذي مسغبة.يتيماً ذا مقربة.او مسكيناً ذا متربة.ثم كان من الذين تواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة))(٣٣)((إنه كان لا يؤمن بالله العظيم.ولا يحضّ على طعام المسكين))(٣٤)((وفي أموالهم حق للسائل والمحروم))(٣٥).

ويرتبط الدين بالمشروع الجديد الذي تطرحه الرسالة والذي يشكل هدفا عقلائياً سامياً من خلال انشاء المجتمع الخالي من الظلم: ((ارايت الذي يكذب بالدين.فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحضّ على طعام المسكين.فويل للمصلين.الذين هم في صلاتهم ساهون.الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون))(٣٦)،والرياء يمثل ابتعادا عما يقره العقل ؛لانه لا يرسخ هذه الاخلاق المرتبطة بفطرة الانسان ومسلماته العقلية،على المستوى الاجتماعي.

ولا بد من الاشارة هنا ان مسؤولية الانسان عن اعماله تمنحه قيمة معنوية عليا من خلال جعله صانعا لمصيره ومختارا لنهايته ،وهذا ما يوافق الاحساس الفطري المغروس في داخله ،والذي يأنف من الاحتقار والتهوين ويسعى الى صنع المكانة المناسبة والقيمة العليا له.

كما ان مصطلح المسؤولية يمكن ان نعده ردفا لمصطلح (الحرية)فكون الانسان مسؤولا عن اعماله يعني انه حر في اختيار نوع هذه الاعمال،وهذه الحرية قضية فطرية وضرورة عقلية ؛فمن الضروريات التي لا تتطلب برهانا على حتميتها ؛أن الانسان يعشق الحرية لانها تمنحه احساسا بالاهمية وتؤكد انسانيته ووجوده.

ثالثاً ـ أسلوب العرض في الخطاب القرآني

بعد أن استعرضنا أهم المحاور التي يدور حولها الخطاب القرآني في العهد المكي،والمتمثلة في الضروريات العقلية التي تلج مباشرة الى يقين الانسان ولا تحتاج الى ضرب من الادلة والبراهين.

سنحاول هنا استعراض جانب لا يقل أهمية عن الجوانب المتقدمة من حيث قيمته التأثيرية وخصوصيته الإقناعية ؛وهو الجانب الخاص باسلوب الخطاب القرآني في عرض هذه الضرورات والمسائل الفطرية المكونة لأصول الدين الجديد،وسيكون ذلك عبر محورين:

المحور الاول: ضرب الامثلة المجسدة والمؤيدة.

المحور الثاني: العرض الفني للقضايا والأفكار.

ضرب الأمثلة المجسِّدة

ففي المحور الاول قدم لنا القرآن طائفة من الامثلة التي تنقل القضايا المطروحة من أفقها الفكري النظري الى مستوى الوجود الواقعي الملموس،وذلك مما يمنح القضية المطروحة بعداً آخر يزيدها تأييداً ووضوحاً ويمنحها وجوداً واقعياً.

وقد اتبع الخطاب القرآني في تشكيل هذه الطائفة من الامثلة عدة اساليب ؛فمرة نراه يقدم مثالاً محسوساً يمثل تجسيداً لهذه القيم التي يدعو اليها،وما يمكن أن يؤول اليه الإنسان بإتباعه هذا الدين،وكان الرسول الأعظم

ISSN-1812-7576

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(ص)هو المثل الأعلى والتجسيد الأسمى لهذه القيم الفكرية والروحية والأخلاقية،فقال تعالى: ((وإنك لعلى خلقٍ عظيم))(٣٧).

كما عمد الخطاب المكي الى تقديم نماذج تجسد المؤيد والمخالف لهذه القضايا الفطرية الكبرى التي يدعو أليها القرآن؛فمن خلال التذكير بالأمم السابقة التي خرجت عن حكم الفطرة وضرورات العقل فلاقت ما لاقته من العذاب الإلهي، وهذا ما يدفع الإنسان الى يقين وجود قوة مدبرة للكون ،متحكمة فيه،تؤثر فيه بما يحقق السعادة للإنسان عن طريق إقرار ما تقره الفطرة،والقضاء على ما لا تقره هذه الفطرة مما يقف في وجه السعادة البشرية.فقد((كان الغرض من القصة في القرآن هو:المساهمة مع جملة الأساليب العديدة الأخرى التي استخدمها القرآن الكريم لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء من أجلها،وكانت القصة القرآنية أهم هذه الأساليب))(٣٨).قال تعالى: ((كذبت ثمود بطغواها.إذ انبعث أشقاها.فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها.فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها.))(٣٩).((كذبت ثمود وعاد بالقارعة.فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية.وأما عاد فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية))(٤٠).((ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد.التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الاوتاد. الذين طغوا في البلاد. فاكثروا فيها الفساد.فصبّ عليهم ربك سوط عذاب.إن ربك لبالمرصاد))(٤١).((نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون.إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم أنه كان من المفسدين.ونريد أن نمن على الذين إستضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين))(٤٢).

والخطاب القرآني في عهده المكي زاخرٌ بهذه النماذج والأمثلة التاريخية التي تبعث في نفس المتلقي شعوراً بالإطمئنان لوجود قوانين عادلة تنظم مسيرة الكون والحياة،ولعل أبرز مثال قدمه القرآن المكي لنا هو قصة نبي الله يوسف(ع) الذي استأثر بسورة كاملة استعرضت مواطن النصر الإلهي والمدد الغيبي لهذه الشخصية الرسالية نتيجة لذوبان وانصهار هذا النبي في طاعة الله والانصياع لاوامره ونواهيه جل شانه، التي هي صورة مجسّدة لفطرة الإنسان.

وقد أشار السيد (محمد باقر الحكيم)(قدس) الى صفات القصص القرآني ،وحصرها في صفات الواقعية،والصدق،والحكمة، والأخلاقية،وأشار الىإهتمام القصص القرآني بالجانب الأخلاقي((لأن المسيرة والحركة التكاملية للإنسان ـ سواءً على مستوى الفرد أو الجماعة ـ إنما تقوم على أساس الأخلاق بعد العقيدة بالله تعالى والرسالات واليوم الآخر،بل إن الإتصاف بالأخلاق العالية هو الذي يمثل عنصر التكامل الحقيقي في حركة الإنسان الفردية والجماعية،ولذا كانت قاعدة المجتمع الإنساني في نظر الإسلام قاعدة أخلاقية،والسلوك الراقي للإنسان هو السلوك الإخلاقي،وقد ورد عن رسول الله (ص) قوله: (إنما بعثت لإتمم مكارم الأخلاق).لذا جاءت القصة في القرآن الكريم ذات طابع أخلاقيّ وللتربية على الإيمان بالله والأخلاق،مثل الإيمان بالغيب،او على التسليم والخضوع لله تعالى والحكمة الإلهية، أو على الأخلاق الإنسانية العالية،كالصبر والإخلاص والحب لله تعالى والتضحية في سبيله والشجاعة والإستقامة في العمل والقدوة الحسنة))(٤٣).

ISSN-1812-7576

Urgent

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والجانب الأخلاقي تجسيد حي لفطرة الإنسان.

فجميع هذه الأمثلة المطروحة ترتكز على ضرورة عقلية وقضية فطرية تتمثل في قبح الظلم ووجوب معاقبة الظالم والمسيء،وحسن مكافأة المحسن،وكذلك بداهة جمالية الأخلاق الحسنة والصفات الإنسانية المثالية ،وقبح الأخلاق المذمومة،القائمة على الغدر والخيانة والإنكار والجحود،والغصب٠٠٠٠٠ وغير ذلك من الاخلاق التي نهى عنها الله - سبحانه وتعالى -.

العرض الفني:

اهتم الخطاب القرآني إهتماماً كبيراً بالاسلوب والصورة التي عرضت بها الحقائق والقضايا المتقدمة،وبشكل فنيّ هو القمة من حيث الفصاحة والبلاغة وجمالية النظم والتنسيق،فضلاً عن السمات الفنية والجمالية الأخرى التي تشمل الألفاظ المفردة والمركبة، والصور الفنية والابعاد التعبيرية العالية التي تترك المتلقي مذهولاً بروعة هذا التعبير وسحر هذا البيان.

وقد ارتفع البيان حتى تجاوز افق الإعجاز بسحره وجماله ،الأمر الذي كان له الأثر الكبير في تعامل العرب وتلقيهم وتقبلهم لهذا القرآن،فقد ((تلقوه مسحورين ،يستوي في ذلك المؤمنون والكافرون،هؤلاء يسحرون فيؤمنون،وهؤلاء يسحرون فيهربون،ثم يتحدث هؤلاء وهؤلاء عما مسهم منه فاذا هو حديث غامض لا يعطيك اكثر من صورة المسحور المبهور الذي لا يعلم موضع السحر فيما يسمع من هذا النظم العجيب وان كان ليحس منه في اعماقه هذا التأثير الغريب)) . [٤٤]

ونجد في القرآن نفسه وصفاً لتأثير كلٍّ من المؤمنين والجاحدين بهذا الخطاب وبأسلوبه الفني ،فقد وصف القرآن (الوليد بن المغيرة) الذي أرسلته قريش ليستمع القرآن ويسفهه ،فبهته بيانه وبلاغته وأدبيته العالية، ولم يجد له وصفاً إلا ما حكاه عنه القرآن الكريم حين قال: ((أنه فكر وقدر. فقتل كيف قدّر. ثم قتل كيف قدّر.ثم نظر.ثم عبس وبسر.ثم أدبر واستكبر.فقال إن هذا إلا سحر يؤثر)) . [٤٥]

أما عن تأثير القرآن في المؤمن فيقول جل ذكره: ((الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانيّ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله)).[٤٦]

وقد أفاض الباحثون في بيان مواقع السحر ومواطن الجمال من هذا الخطاب،سواءً المتقدمين منهم أم المتاخرين، وبصورة لا متسع هنا لبيانها،إنما يمكن مراجعة نتاج واحد من الباحثين المتقدمين وهو (عبد القاهر الجرجاني) في كتابه (دلائل الإعجاز)، وكذلك مراجعة ما كتبه واحد من الباحثين المتأخرين وهو (سيد قطب) في كتابه(التصوير الفني في القرآن)،لكي يستجلي القارئ روعة وسحر هذا السفر الفني والكتاب المعجز،ببيانه واسلوب عرضه للحقائق والقضايا الكونية،والتشريعات الانسانية على مستوى الفرد والجماعة،وهو بذلك يلامس ضرورة فطرية لدى الانسان تتمثل في عشق الجمال وحب الكمال ،والتي هي سمة فطرية تكاد تكون المحرك الأكبر للانسان في جميع شؤونه وتوجهاته الفكرية والمادية.

ISSN-1812-7576

Urgent

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخــاتمة:

بعد هذه الاطلالة العجلى على جانب ضئيل من جوانب الخطاب القرآني في عهده المكي،مستعرضين - على نحو الاجمال والعموم - الاسس والمنطلقات التي اعتمدها هذا الخطاب المقدس في طرح المشروع التغييري الهائل الذي جاء به الرسول الخاتم (ص)، والذي استطاع - خلال فترة وجيزة-ان يلج الى اعماق النفس الانسانية ،وأن يفرض وجوده وهيمنته بقوة على أسس فكرية وروحية رصينة لا يمكن نسفها او ابطالها.

ولاحظنا أن سر هذا التأثير والاقناع الذي اتسم به الخطاب القرآني يكمن في أمور عدةٍ تتعلق بمحتوى الخطاب وباسلوب عرض هذا المحتوى، وعلى النحو التالي:

١ - اعتماد الخطاب المكي على قاعدة في الحوار والمناضرة تتمثل في مواجهة الاخر بمسلماته ومعتقداته التي يؤمن بها عقله وتقرها فطرته،واعتماد هذه المسلمات والضرورات كقاعدة يتم من خلالها طرح الافكار والمسائل المراد اقناع الآخر بها.وعدم مواجهته بما هو يرفضه اصلاً بفكره وعقله،مما يؤدي الى سد باب الاقناع والتواصل معه.

٢ -أنشأ الخطاب القرآني حوارية داخلية لدى الآخر، جاعلاً منه حجةً على نفسه،من خلال التركيز على البديهيات العقلية والضروريات الفطرية في كشف زوايا الخطاب.

٣ - طرح صورة متكاملة للمشروع الجديد المراد ايصاله عبر الخطاب،لغرض جعل المقابل على معرفة تامة بنتائج هذا الخطاب وأهدافه التي يسعى الى تحقيقها ،مع التركيز في رسم صورة المشروع الجديد على القضايا التي تلتقي مع مسلمات الآخر، وتداعب فطرته.

٤ - تقديم الأمثلة التاريخية والعملية الممثلة لكل من المؤيد والمخالف لأطروحة الخطاب القراني الجديدة،من خلال ذكر عاقبة الامم والأشخاص الذين خرجوا عن حدود الفطرة الإنسانية التي يقوم عليها الخطاب القرآني،وكذلك من خلال تقديم المثال العملي المحسوس الذي يكون أقرب الى الإدراك والتأثير من الأفكار المجردة والغيبية،وكان هذا المثال مجسداً بالرسول الخاتم(ص).

٥ - توظيف الجانب الذوقي والجمالي والعاطفي لدى الآخر من خلال الاهتمام بأسلوب الخطاب القرآني الذي كان غاية في البلاغة وسحر البيان،وكان معجزاً بأسلوب نظمه وتعابيره العالية التي تركت العرب مبهورين وعاجزين حتى عن معرفة سر هذا السحر والجمال،وبذلك يتم الاستفادة من الجانب العاطفي لدى الآخر في إيصال أطروحات الخطاب الجديد ،خاصة اذا علمنا أن الجانب العاطفي من اكثر الجوانب تأثيراً في الإنسان،وكذلك من أهم سبل التواصل مع الآخر ،مهما تعارضت المسائل الفكرية والنظرية .

Urgent

ISSN-1812-7576

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هوامش البحث

١.فلسفتنا:٦٣.
٢.الروم:٣٠.
٣.البقرة:١٣٨.
٤.لسان العرب:٥/
٥.الأربعون حديثاً:١٧٥.
٦.رسائل المرتضى:٢١٩.
٧.الأربعون حديثاً:١٧٦.
٨.الروم:٣٠.
٩.الميزان:٩٨٧/١٦.
١٠.آل عمران:١٩.
١١.الأنبياء:٧٣.
١٢.الأربعون حديثاً:١٧٦.
١٣.الحدائق الناضرة:٤٢٦/١.
١٤.الأربعون حديثاً:١٧٦ ـ ١٧٧.
١٥.العلق: ١.
١٦.الأعلى:١ـ٣.
١٧.فصلت:٩.
١٨.الشمس:١ـ٤.
١٩.نوح:١٥ـ١٦.
٢٠.غافر:٥٧.
٢١.ق:٦ـ١٠.
٢٢.الجاثية:٣ـ٥.
٢٣.الزمر:٢١.
٢٤.المرسل،الرسول،الرسالة:١٣.
٢٥.النجم:٣٨ـ٣٩.
٢٦.طه:١١١.
٢٧.القمر:٥٢.
٢٨.الطور:١٦.
٢٩.ق:١٧ـ١٨.
٣٠.المدثر:٣٨.
٣١.ق:٢٤ـ٢٥.
٣٢.الزلزلة:٧ـ٨.
٣٣.البلد:١١ـ١٧.
٣٤.الحاقة:٣٣ـ٣٤.
٣٥.الذاريات:١٩.
٣٦.الماعون:١ـ٧.
٣٧.القلم:٤.
٣٨.القصص القرآني:٢١.
٣٩.الشمس:١١ـ١٤.

ISSN-1812-7576

Urgent

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤٠.الحاقة:٤-٦.
٤١. الفجر:٦-١٣.
٤٢. القصص:٤-٥.
٤٣. القصص القرآني:٢٧-٢٨.
٤٤. التصوير الفني في القرآن:٢٢.
٤٥. المدثر:١٩-٢٤.
٤٦. الزمر: ٢٣.

مصادر البحث:

١. القرآن الكريم.
٢. الأربعون حديثاً: الإمام الخميني،دار الكتاب الإسلامي.
٣. التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار الشروق، بيروت.
٤. الحدائق الناضرة: المحقق البحراني،تحقيق:محمد تقي الايرواني،جماعة المدرسين،قم.
٥. رسائل المرتضى: الشريف المرتضى،تحقيق:السيد مهدي رجائي،دار القرآن.
٦. فلسفتنا: السيد محمد باقر الصدر،دار التعارف للمطبوعات،بيروت،ط (١٥)،١٩٨٩.
٧. القصص القرآني: السيد محمد باقر الحكيم،دار التعارف للمطبوعات،بيروت، ط١٩٩٩،١.
٨. لسان العرب:ابن منظور،دار احياء التراث العربي .
٩. المرسل، الرسول،الرسالة: السيد محمد باقر الصدر،دار التعارف للمطبوعات،بيروت،٢٠٠٣.
١٠. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي،دار الكتب الإسلامية،طهران،ط١٣٩٧،٣ق.

Urgent

ISSN-1812-7576

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com